سلسلة لقاءات التفسير لشهر رمضان المبارك من عام ١٤٣٦هـ

اللقاء الواحد والعشرون: سورة فاطر (٤١-٤٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
نحمد الله حمدًا كثيرا طيّبًا مباركًا ونسأله سبحانه وتعالى في هذا اليوم المبارك في بداية هذه العشر التي نسأله سبحانه وتعالى أن تكون مباركة علينا أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.
وأن يجعلنا من المخلصين الصادقين وأن يغفر لنا تقصيرنا وإسرافنا في أمرنا ويثبت أقدامنا وينصرنا على القوم الكافرين.

نتدارس اليوم بأمْر الله آيات من سورة فاطر هذه السورة التي موضوعها التوحيد تبيّن آياته، وتدلّ على دلائله فتبتدئ بالربوبية وتدفع من يقرأها إلى أن يتأمّل في آيات الله الكونية حتى يصل إلى الألوهية وعبادة الله وحده لا شريك له.
وموطن دراستنا لهذه السورة خاتمتها، فإنها خُتمت بآيات فيها دلالة على عظمة الله وسلطانه وكماله وجلاله ورحمته بعباده.
وبداية دراستنا من قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ}** وهذا الفعل العظيم لله عز وجل سيظهر منه كمال عظمة الله وقدرته، يمسك ماذا؟ **{السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}** من أي شيء؟ **{أَنْ تَزُولَا}** ولو حصل وزالتا لا يمكن لأحد أن يمسكها **{وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ}** ثم ختم الله بقوله **{إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}**.

قال السعدي رحمه الله : "يخبر تعالى عن كمال قدرته" يظهر في إمساك السماء.
"وتمام رحمته" يظهر في إمساك السماء.
"وسعة حلمه ومغفرته" وسيتبيّن لنا أين يظهر سعة الحلم والمغفرة، لكن تمام القدرة وتمام الرحمة واضح في كون أن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولو حصل وقدّر أن تزول لا يستطيع أحد أن يردّها إلى مكانها ولا أن يعيدها إلى نظامها.
فكل المعبودات لا تقدر على خلق شيء من السماوات والأرض كما هو متبين في السورة، والله هو خالقهما وهو ممسكهما، إذن لا يوجد حادث إلا بإيجاده ولا يبقى شيء إلا ببقائه، ومعناه أنّ أهل الإيمان يعلمون أن كل أحد غير الله لا تصرف له في الكائنات لا في الأرض ولا في السماء، ويعلمون أن الله قيّوم.
إذن (يمسك) من آثار قيّوميّته، فهو سبحانه وتعالى قيّوم على السماوات والأرض، فما بقاءها محفوظة إلا لأنه قائم عليها، فهو الحافظ لها بقدرته سبحانه وتعالى نظام بقاؤها، وهذا الإمساك فعل من أفعاله، أثره أن لا ينفلت هذا الكون ولا يتفرّق.
إذن السماوات والأرض محفوظة بحال استقرار بسبب أن الله يمسكها، أما (كيف) فهذا ليس شأننا، وهذه حقيقة، أن الله يمسكها، ولذا هذا النظام وهذا الاستقرار الذي نعيشه وكون هذه الكرة في الفضاء وهي راسية كما مرّ معنا في سورة النمل، كل هذه الحقائق لا توجد لدينا نظريات لها، ولا يوجد لدينا تفسيرات لها إلا تفسير واحد: أن الله أمسكهما، وهذا التفسير يجب أن يُوضّح ويُبيّن ويُحفّظ لأبنائنا.

ونحن لسنا في معرض انتقاد أي نظرية علمية يقول عنها أهلها أنها علمية، لا قانون الجاذبية الأرضية ولا غيره، هذا ليس محل للنقاش، نحن نريد أن نعرف ماذا نقول لأبنائنا عما يرونه من هذا النظام المحفوظ الذي يستطيعون أن يروا آثاره، وأهل هذا العلم يقولون النظام الشمسي، فهذا نظام للشمس وللكواكب الأخرى وتدور في فُلك ثابت ومستمر، وإذا أراد الله عز وجل أن ينتهي هذا العالم قيّض فيه ما يطرأ عليه ويسبّب خلله وفساده وخرقه بعد الالتئام وفتقه بعد الرتق، ووقتها تتفكك هذه كلها ويحصل ما أخبرنا الله به في كتابه إذا الشمس كورت وأن النجوم اندثرت، وكل هذه الأشياء الهائلة العظيمة التي ستحصل لما يريد الله عز وجل.

الذي نريد أن نقوله الآن أن تفسير هذا النظام الكوني عندنا ليس بنظرية فلان ولا فلان، عندنا هذا النظام الكوني تفسيره (أن الله يمسكهما)، السماوات والأرض، ولذلك لا تزولا، ولذلك لما ترمي الأشياء إلى أعلى تسقط إلى أسفل، ولذلك نحن لا نستطيع أن نطير، ولذلك ولذلك.. كل هذه الأمور التي تسأل عنها جوابها: أنّ الله جعل لهذا الكون نظاما وأن هذا النظام نعبّر عنه بأن الله أمسك السماوات والأرض، ونعتقد أنه فعلا ولا نعلم كيف، نعتقد الصفة ولا نعلم كيف تكون هذه الصفة، فلذا لا يُنتظر ممن يسمع هذا إلا الإيمان، وليس المناقشة ومحاولة نقل هذه الحقائق إلى العلم الحديث، نؤمن أنّ الله يمسك السماوات والأرض، وهذا المعنى يكفينا في اعتقادنا.

وإمساكهما يمنع السماوات والأرض من الزوال كما هو متبيّن، وهذا فيه إيقاظ للبصائر لكي تعلم هذا الخبر إجمالًا وتبحث عنه تفصيلًا وتتدبّر في اتساق هذا النظام البديع، فتزيد إيمانا وتنتفع به.

يقول : " وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما" وهذا حق يقين، فإن أهل السماوات والأرض كلهم لو اجتمعوا على أن يؤخروا هذه الشمس عن الشروق أو الغروب ما استطاعوا ولو بذلوا، فمعناه أن الخلق يرون آثار كمال قدرة الله في تسخير هذه الأشياء.

{وَلَئِنْ زَالَتَا} وهذا التقدير معناه أن يكونوا على حذر فإنّهما يمكن أن تزولا، ولما ننظر في سياق السورة نرى أن ذكر إمساك السماوات عن الزوال بعد محاجة المشركين وبعد بيان غرورهم، كأن فيه إشارة له أن ما تدعونه فظيع، يزلزل الأرض ويسقط السماء لو لا أن الأرض أراد بقاءهما لحكمة، وهذا كأنه إشارة إلى اسم الغفور واسم الحليم الذي خُتمت بهما الآية **{ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}** ، فكأنه يقال ما أشد وأفظع ما فعلتم لو لا أن الله حليم غفور كان أهلككم.

وهذا يشبه ما مرّ في سورة مريم **{لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا }** فمعناه أن هذه المخلوقات كلها تتأثر وتكاد تزول لو لا أن الله يعاملنا لحلمه ومغفرته، ففي صفة الحلم على المؤمنين من أنه سبحانه وتعالى لا يزعجهم بهذه الفظائع العظيمة، ويحلم على الكافرين فلا يتعجّل عليهم، بل يتأخر في مؤاخذتهم فإن التأخير من آثار الحلم، وهو الغفور سبحانه وتعالى وتقتضي صفة المغفرة أن في الإمهال إعذار للكافرين لعلهم يرجعون.

يقول الشيخ: " ولكنه تعالى، قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والنفع، والاعتبار" وقد مرّ معنا كيف أن كل المخلوقات خلقها الله عز وجل للانتفاع وللاعتبار.

"وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالًا وتعظيمًا، ومحبةً وتكريمًا"

معناه لو أنك رأيت السماوات والأرض وكيف أن الله قيوم عليها سيظهر لك من عظيم سلطانه وقوة قدرته ما به يمتلئ قلبك إجلالًا وتعظيمًا ومحبة وتكريمًا.

"وليعلموا كمال حلمه ومغفرته" وهذا ظاهر في كون أن المذنبين أمهلوا.

"بإمهال المذنبين، وعدم معالجته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم" رمتهم بالحجارة.

"ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه، وكرمه **{إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}**"

وأمام هذه الصفات العظيمة لابد من وقفة تأمّل خصوصًا ونحن في هذا الشهر العظيم، وكنا نهنّئ بعضنا بدخوله، وها نحن بدأنا نشعر بخروجه! وها نحن أقبلنا على عشر عظيمة فيها ليلة عظيمة (ليلة القدر) ، ومن حلم الله عز وجل على المؤمنين رغم معصيتهم وتقصيرهم ورغم الذنوب التي تكاد تصل عنان السماء، ورغم التقصير وقلة الجهد في الطاعة وعدم الشكر كما ينبغي، رغم هذا كله لكن من آثار حلمه أن دعا خلقه وجعل لهم أيامًا فاضلات، لابد أن ينتفعوا بها حق الانتفاع، لابد أن لا يكونوا محرومين، فهو الحليم، مدّ في الأعمار وزاد في فضائل الأيام وجعل ليلة خير من ألف شهر، العابد فيها مأجور كأنه عبد ألف شهر، من آثار حلمه يدعو خلقه للعمل الصالح ليغفر لهم، وهو غني تام الغنى عن الخلق، كريم غاية الكرم معهم، ومن كرمه هذا الذي نراه، يُمدّ لنا في الأعمار، تأتي لنا أيام فاضلات، يُحضّ الخلق على عبادات..

فعلينا أن نسأله تعالى وهو وحده المسؤول أن يرزقنا حولًا وقوةً، وأن يوفّقنا لأعمال يحبّها، وأن نكون مخلصين في ذلك.

وقد كان رسولنا صلى الله عليه وسلم له حال في هذه العشر تختلف عن غيرها!

وما لنا إلا أن نرجو مغفرته وننتفع بحلمه، فندخل في سعة حلمه، وننتفع منها، ونرى تأخيره وحبْسه عنّا العقوبة التي نستحقّها بتقصيرنا في شكره، نستفيد من تأخير هذه العقوبة بالاستغفار والتوبة علّه ينظر إلينا فيرحمنا!

إذن علمنا من هذه الآية العظيمة عن الله أمور عظيمة:

أولها: أنّ الله عظيم في قدرته واسع في رحمته.

وعلمنا أنه قيّوم سبحانه وتعالى يقوم على خلقه.

فعِلْمنا بكمال قدرته وسعة رحمته وقيوميّته على خلقه مِن عِلْمنا بأن الله يُمسك السماء ويمسك الأرض.

من هذا العلم عرفنا كمال قدرته وسعة رحمته وقيوميته.

ومن هنا تفرّع الأمر الجديد، فإنّ إزالة السماوات والأرض في قدرة الله كما هو معلوم والله على كل شيء قدير، لكن من رحمته وحلمه ومغفرته حَفِظ الخلق من ذلك، فلا يفجع المؤمنين ولا يعاجل الكافرين، وإلا الأمر كن فيكون، لو أمر السماء لرمتهم بالحصى، ولو أذن للأرض لابتلعتهم، ولو أمر البحر لهاج عليهم، نعوذ بالله من سخطه وغضبه

ثم يأتي قوله تعالى: **{ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}** وهذه حكاية عن المكذبين الذين رأوا آيات الله فأنكروها وهم الذين عاملهم الله عز وجل بالحلم ودعاهم إلى مغفرة ذنوبهم، لكن نسمع ماذا كان موقفهم، فهؤلاء أقسموا بالله جهد أيمانهم، على أي شيء؟ **{لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ}** يعِدون أنه لو جاءهم نذير **{لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ}**، وهم واثقين في أنفسهم يظنون أن الأمر بيدهم، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورًا.

وهذا من آثار تعظيم النفْس، يظن الظانّ أنّ الإيمان بيده متى شاء ويظنّ أنه لو أراد أن يؤمن استطاع أن يؤمن دون أن يأذن له الله، وهذه المقولة عند العرب الظاهر أنها صدرت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لما كانت النصارى تدعوهم وكانوا في مجاري المحاورات والمفاخرة بينهم وبين النصارى ممن يقدم عليهم بمكة أو هم يقدمون عليه في الشام، ويكلم هؤلاء النصارى المشركين عن عيبهم لعبادة الأصنام ويدعونهم إلى النصرانية، وهم نصارى ويرون أن الدعوة مطلوبة منهم، فكانوا يدْعون المشركين إلى إتباع النصرانية ويقبحون لهم الشرك، فكان المشركون لا يجرؤون على تكذيب أهل الكتاب؛ لأنهم لهم مكانة عندهم، وينظرون لهم بعين الوقار، فهم يرونه يعرفون الدين وهم لا يعرفونه، فكانوا يعتذرون بأنّ رسول القوم الذي يدعونهم إلى دينهم لم يكن مرسلًا إلى العرب، ولو جاءنا رسول لكنا أهدى منكم.

وهذا مثل في سورة الأنعام: **{أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ}**، هذا تصوّر يتصوّروه عن أنفسهم، أنهم لو نزل عليهم كتاب أو جاءهم رسول فسيكونون مؤمنين.

معناه أن الله عز وجل لما أخبرنا في أول السورة عن ضلال المشركين في شأن ربوبيته وفي شأن الرسالة، بيّن لهم فظاعة ما يقولون في الآية السابقة، وبيّن لهم أنهم لم يختاروا الطريق للدخول في حلمه وهو الحليم الغفور، واغتروا بذلك.

وهم أقسموا بالله جهد أيمانهم: يعني أبلغها وأقواها، من الجهد والتعب.

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ} حلفوا بالله وأقسموا بالله قسمًا فيه جهد يقولون **{لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ}** يعني الرسول، وعدوا أن **{لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ}**، يعني أحسن من أمة من الأمم التي عندها الدين سواء كانوا اليهود أو النصارى.

وهنا ترى استعظام النفس وشعورهم بأنهم أهل اختيار وأنهم سيكونوا أفضل الأمم نتيجة أنهم سيستجيبون متى أرادوا، وهذا يشير إلى أمر عجيب وهو أن بعض العرب كانوا يعلمون برسالة الرسل، وحتى لو كانوا يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء إنما يقولون ذلك من باب الملاحة والمحاجة لما أُلزموا بالحجة.

المقصد الآن أنهم يقسمون أنه لو جاءهم نذير أنهم سيؤمنون، **{فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا}** يعني لما جاءهم الرسول كان يقتضي الأمر تغيير أحوالهم إلى ما هو أحسن وهم يقسمون هذا القسم العظيم، قالوا إذا جاء النذير اهتدينا وازددنا من الخير وتركنا الشر وطلبنا محاب ربنا، لكن الحقيقة أنهم صاروا نافرين عن الدين الذي جاءهم، وهذا والله وإن كان في حق الكفار المشركين وهو في الأصل في حقهم لكنه يخيفنا جدًا!

كم قُلنا لو جاء رمضان فعلنا! وكم قلنا في رمضان في العشر الأخيرة سنفعل!

فالواجب أن تستيقظ قوانا في طلب الحول والقوة من الله، وأن نعرف أن الأمر ليس بيدنا، صحيح المطلوب أن نجعل الأيام القادمة ليست مثل الماضية لابد، لكن ليس بمجرد الأماني ولا حتى بالخُطب، إنما أولًا بطلب الحول والقوة من الله، والدخول

في حماه، والرغبة إليه، والمحاولة الصادقة في تفتيش صِدْق القلب، وطلب من الله عزيمة تُعين على الانتفاع من هذه النعمة العظيمة.

فها هم هؤلاء العرب أقسموا بالله جهد أيمانهم: يعني اجتهدوا في ذلك، أنه لو جاءهم رسول سيكونوا أهدى من إحدى الأمم يعني اليهود أو النصارى، وسيزدادون خيرًا؛ لأنهم لا يريدون إلا الطريق، فقط دلّنا الطريق ونحن نسير، والله يقول: **{زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا}**.

فنحن نخشى أن نكون نفعل مثل فعلهم! نُقسم أو نوعد أننا سنكون أفضل، وتتوفر لنا الفرص، ويأتينا الوقت المناسب، فلا نجتهد!

لكن ليس لنا إلا أن نطلب منه سبحانه وتعالى أن يعطينا الحول والقوة ويبارك لنا في الأوقات، ويجعل ذكره على ألسنتنا وفي قلوبنا ويظهر أثر خشيته في أعمالنا.

ولا نكون مثل هؤلاء الذين ازدادوا نفورا، كانوا نافرين من قبول دعوة النصارى ونافرين من دين اليهود وأقسموا هذا القسم أنهم لو جاءهم الرسول سيتبعون ولما جاءهم الرسول ما زادهم شيء وإنما زادهم نفورا، فأصبحوا لا يطلبون إلا هوى أنفسهم، ولا يرغبون إلا بإظهار العناد الدال على أنهم كاذبين في قسمهم، وسيظهر لنا هذا أكثر لما نفهم هذه الآية التي تستقبلنا..

يقول الشيخ السعدي: "وأقسم هؤلاء، الذين كذبوك يا رسول الله، قسمًا اجتهدوا فيه بالأيمان الغليظة. **{لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأمَمِ}** أي: أهدى من اليهود والنصارى أهل الكتب، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود. **{فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ}** لم يهتدوا" ولذا دائمًا نعيد على أنفسنا تأتينا الفرص وقد أقسمنا ووعدنا وعاهدنا أن نغتنم، لو مدّ أعمارنا إلى رمضان تُبنا واستغفرنا وانتفعنا، ولو أعطانا المال أنفقنا، فهذا كله وعود ولما تأتي أزمانها تظهر حقائقها، فما لنا إلا أن نطلبه سبحانه وتعالى أن يعيننا، كيف لا نتمنى أن نعمل الأعمال الصالحة!؟ نحن نحب الأعمال الصالحة، نقول ليس الممنوع تمنيها، إنما الثقة بالنفس أن أستطيع أن آتيها دون أن أُرزق من الله حولًا وقوة، هذا الذي يؤذينا.

"**{فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ}** لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل {مَا زَادَهُمْ} ذلك **{إِلا نُفُورًا}** وزيادة ضلال وبغي وعناد.

وليس إقسامهم المذكور، لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوُفّقوا له، ولكنّه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق، وعلى الحق، وبهرجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون".

وهذه من أخطر أحوال الإنسان هذه الحال تجعل صاحب القَسَم في حال من الكذب على النفس؛ لأنه يمكر، يعني الذي سبّب لهم أنه لما جاءهم النذير لم يؤمنوا أن وعوداتهم كلها إنما هي من باب المكر.

يمكرون بأي شيء؟ ممكن أن يكون مكرهم هذا ما هو واضح في الآية **{اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ}**، (استكبارًا في الأرض) والسين والتاء هنا للمبالغة، والمقصود في الأرض يعني في موطن بلدهم، والمكر معناه إخفاء الأذى حتى يصل صاحبه لمراده، وهو نوع من الغدر، وهو منافي للأخلاق الكريمة.

فلا يوجد مكرًا سيئًا إلا ومقصود صاحبه سيء، كيف نفهم الآيات؟! ربما أن هؤلاء العرب لما كانوا يسمعون الدعوة إلى الدين ويخاطبون بما كانوا يريدون أن لا تظهر صورتهم معترضين على دين اليهود والنصارى لمجرد الاعتراض مع حسنه على دينهم، أي عاقل لما يقارن بين دين المشركين ودين النصارى يجد أن دين النصارى خير من دين المشركين يعترفون بالله، وهؤلاء يعبدون حجارة، خصوصًا وأن التثليث لم يكن دين كل النصارى الموجودين في ذاك الزمان.

الشاهد أنه لما كانوا يجلسون في مجالسهم ويسمعون هذا الكلام لا يريدوا أن يكون هم المعابين –أن يكون فيهم العيب– لأنهم سيصبحون أقلّ من غيرهم، فيريدون أن يبقوا هم الأعلى، فمن أجل هذا الاستكبار ومن أجل أنهم يريدون أن يكونوا خير الناس دائمًا ولا أحد يعيبهم في أي شيء فيقولون لو جاء رسول من عندنا منا وبِلُغتنا سنؤمن به، فكان كلامهم الذي فيه وعود للإيمان لمجرد أن يبقوا في صورة حسنة.

بعيدًا عن الشرك والكفر وهكذا في ديار أهل الإسلام، قد يأتي أحد فيوعظ وينصح، والموعوظ المنصوح لا يريد أن يكون أقلّ، يصيبه الكبر، فيحتال بصورة لا تُظهر أنه معترض على الناصح، كأنه موافق للناصح وفي نفس الوقت له عذر في امتناعه وردّه، فهو يردّ الحقّ استكبارًا، هذا شيء لوحده، لكن ردّه بطريقة المكر هذا شيء آخر.

فالماكر يكون مستكبرًا ويُبقي صورته الخارجية حسنة أمام من ينصحه، فيُنصح ويوعظ ويكون حقًّا هذا الكلام لكن لو نظرنا إلى الخلافات الفقهية ستجد الأمر واسع مثلا، وربما يكون صحيح الأمر واسع لكنه هو لا يتكلم هذا الكلام إلا ليبقي صورته حسنة ولا يهمّه حقيقة الأمر، والحقيقة أنه لا يحيق ضر المكر السيء إلا بأهله، فأنت تأتي تعظ الناس وتقول لهم افعلوا الخير وافعلوا الصواب فيقولوا نحن نحب الصواب والخير ونريده لكن العلماء ما اتفقوا! فيمكر بك، يخرجك من الخطاب الأساسي ويلقيك في دوامة اتفاق العلماء وعدم اتفاقهم ويدخلك في المسألة الفرعية، أو يسألك فيقول نحن نريد الخير ونكره الشر ونريد أن نطيع ربنا لكن ما حكم كذا وكذا، وكذا وكذا يكون من المسائل الفرعية، او يسألك فيقول نحن نريد الخير ونكره الشر ونريد أن نطيع ربنا لكن ما حكم كذا وكذا من المسائل التي وقع فيها اختلاف وإشكالات، فيكون مراده مجرد المكر، **{ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}**.

إذن ليس إقسامهم المذكور لقصد حسن وطلب للحق وإلا لوُفّقوا له، لكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، يقول والله لو أعرف الحق ولو اتفق هؤلاء العلماء سأسير وراءهم، والله لو أتيت لي بآية تدلّ على أنّ غطاء الوجه واجب سأفعل، منهم الصادق ومنهم الكاذب، الكاذب يستعمل هذا مكرًا.

يقول الشيخ: "وبهرجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون".

وهذا كثير للأسف، الآية وقعت في الكلام حول أهل الكفر لكن أيضًا يدخل فيها أهل الإسلام الذين استكبروا عن اتباع آيات الله ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله، فيكونون قد جمعوا بين المصيبتين في أنفسهم وفي غيرهم.

"**{وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ}** الذي مقصوده مقصود سيئ، ومآله وما يرمي إليه سيئ باطل **{إِلا بِأَهْلِهِ}** فمكرهم إنما يعود عليهم" ومحاولتهم لتشويه الحق ستعود عليهم.

"وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم".

وهذا عند أهل الإسلام الحمد لله واضح، فإن الليبرالية وغيرها من الأفكار الباطلة تدخل على أمة الإسلام بمكرٍ من هؤلاء فيأتي يقول أعطيني دليل على وجود الله، أعطني دليل على أن الرسول مرسَل من عند الله، وهكذا. يأتي يسأل كأنه يريد الحق وهو يريد الباطل، أو أحد يأتي يقول أنا سأكون من أهل السنة لو أجبت على هذا السؤال وهذا السؤال، وهم يريدون بذلك المكر ويريدون إلا أن يدخل في قلوب أهل الإيمان الشك، فيردّ الله عن أهل الإيمان وتخرج العلوم الكثيرة الرادة ويكتب الفضلاء في شأن كل مسألة، وتجد هؤلاء وهؤلاء يتناقلون الخير فينتشر الخير على يد المحاربين له.

وهذا كثير فيمن يقرأ التاريخ، فإنهم لما حملوا حملة الرجل واحد على المسلمين فيما يسمونه محاربة الإرهاب، عاملهم الله عز وجل بضدّ ما أرادوا، فما وقع في حبالهم إلا ضعيف الإيمان أو سيء القصد أو سيء الإرادة، وبحث عن هذا الدين العظيم وأراد أن يعرف حقيقته مَن سمع وكان قصده حسنًا، من سمع المحاربة وهؤلاء إرهابيين وكان قصده حسن وعنده عقل فكان محاربته للإرهاب دعايا لكثير من العقلاء أن يعودوا فيبحثوا عن الإسلام ويعرفوا الإسلام.

"فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحلّ بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدّل ولا تغيّر، أنّ كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يحلّ به نقمته، وتُسلب عنه نعمته".

وهذا لا يتغير، الذي يستكبر ويبيّن نفسه أنه يريد الخير ويمكر بالمؤمنين في صورة إرادته للخير، هذا ستحلّ عليه النقمة وتُسلب عنه النعمة، مهما رفعه الإعلام ومهما صوروه بصورة المصلح ومهما أتوا بأطروحاته على أننا نريد جواب على هذه الإشكالات، ستذهب إشكالاته وسيثبت الله الإيمان في قلب المؤمنين وستحلّ عليه النقمة وتسلب عنه النعمة.

"فَلْيَتَرَقب هؤلاء، ما فعل بأولئك" من هم اليوم يعيشون هذا اليوم فليفكروا كيف قُتل أولئك يوم بدر، وكيف وقع عليهم عاقبة الشرك ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

نحن نرتقب ما فُعل بقريش وغيرهم من العرب التي مكرت المكر السيء ومن قبلهم، وهم ينظرون إلى من قبلهم **{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً}** إذن تمكرون المكر السيء ولا تظنون أنه ينقلب عليكم هذا لأنكم لم تنظروا في الأرض نظر استدلال، أنتم تساوون الأولين في كونكم منذرين، كفرتم، مكرتم، سيحلّ بكم ما حلّ بهم من أنواع هم يشاهدونها من آثار استئصالهم في ديارهم، يمرّون عليها مصبحين وهم في الليل، فهم يعلمون ويرون آثار الاستئصال، فكيف يأمن من مكر السيء ألا يُحيط به المكر السيء ويمكر الله به؟!

إذن لا تظنون أنّ أحدًا ينفعكم، بل سيروا في الأرض وانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كيف دمّر الله عليهم، وللكافرين أمثالها، خلت منهم منازلهم، سُلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعُدد، وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى عنهم ذلك شيئا ولا دفع عنهم ذلك شيئا.

يقول الشيخ السعدي: "يحض تعالى على السير في الأرض، في القلوب والأبدان، للاعتبار، لا لمجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل، وكانوا أكثر منهم أموالا وأولادا وأشد قوة، وعمروا الأرض أكثر مما عمرها هؤلاء" وهذا الشيء المهم جدًا أن نعرف حضارة الأقوام الذين سبقوا عظيمة، فلا نظن أنه لم يكن معهم شيء، بل كان معهم شيء كان لهم حضارة، لكن أبقى الله آثارهم في ديارهم وذهب بهم، فطوى العظيم سبحانه وتعالى هؤلاء طيًّا.

"فلما جاءهم العذاب، لم تنفعهم قوتهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيئته" إذن لا يحيق المكر السيء إلا بأهله وانظر إلى ما وقع بهؤلاء.

"**{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ}** لكمال علمه وقدرته **{إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا}**".

فإنه سبحانه وتعالى لا يفوته شيء ولا يظن الظانين أن ما هم عليه من إمهال أن الله لا يقدر عليهم تعالى الله عن ذلك، بل هو العليم الغفور وهو العليم القدير، فمتى شاء أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ولذا أعاد هذا المعنى مرة أخرى فقيل لنا: **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ}** والحقيقة هذا ما نعيشه، فإننا في هذه الأيام العظيمة نعترف لله عز وجل بذنوبنا وآثامنا وقلة إخلاصنا وتشتت قلوبنا ودخولنا في أنواع من المعاصي التي لا يرضاها ومن قلة شكر مع عظيم النعماء لكنه سبحانه وتعالى لا يؤاخذ بالجريرة، ويغفر للمقبلين عليه التائبين المنيبين.

ولو تعجّل لهم ما ترك على ظهرها من دابة، يعني لم يبقَ في الأرض أحد، فلا يغرّنا تأخير المؤاخذة فنحسبه عجزًا أو رضا من الله بما نحن فيه، لا نظنّ أنّ عطايا الله التي تزيد يومًا بعد يوم في مقابل معاصينا التي تصعد يومًا بعد يوم أن هذا دليل على أن الله راضي! بل عذاب الله وعقوبته لها أجل اقتضتها حكمته، فيها مراعاة لمصالح الخلق كلهم، فلا يُظنّ أنّ العطية تدلّ على الرضا أو أنّ عدم العقوبة تدلّ على أنّ الله يقبل هذا العمل.

ونحن جميعًا في حلمه وشدة إمهاله كما يقول الشيخ: "ثم ذكر تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله وإنظاره أرباب الجرائم والذنوب، فقال: **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا}** من الذنوب **{مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ}** أي: لاستوعبت العقوبة، حتى الحيوانات غير المكلفة".

إذا سيحاسبنا على كل أمْر فعلناه هنا في الدنيا ويعاقبنا به في الدنيا، كان ما بقي على ظهر الأرض من دابة! من شدة عظمة ما نفعل وعظمة قدرتنا.

"**{وَلَكِنْ}** يمهلهم تعالى ولا يهملهم و **{يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}** فيجازيهم بحسب ما علمه منهم، من خير وشر"

وهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، ومعناه أنه سبحانه وتعالى إذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا، فإنّ الله كان بعباده بصيرًا، أي عليمًا بأفعالهم سواء كان في تأخيرهم أو في حالة مجيء الأجل.

إذن ننظر مرة أخرى للآية: {**وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ**} لم يقل ماذا سيحصل لهم بل قال {**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**} ماذا سيحصل لهم؟ إذا جاء أجلهم أخذهم بما كسبوا، فإن الله كان {**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**} أي عليمًا بأحوالهم، ويمكن أن يأتي سؤال: ماذا جنت الدواب حتى تُستأصل بسبب ما كسب الناس؟! وكيف يُهلَك كل من في الأرض فيهلك المؤمنون والصالحون؟! فكان الجواب فإنّ الله كان بعباده بصيرًا، فأما الدواب فإنها مخلوقة للإنسان {**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**}[١] فإهلاكها يكون إنذارًا للناس ليقلعون، وإذهابًا لمصالحهم من أجل أن يستفيقون، وأما المؤمنين فإن كلًّا يُبعث على نيّته ويعوضون ما خسروا في دنياهم لو خسروا شيء من هذه الأشياء التي وُهبت لهم.

فالمقصود أننا لا نغترّ بحلم الله بل ننتفع من حلمه، وهذه أيام مباركة نُقبل عليها فلنمتّع نفسنا بها بطاعة الله ولنستفيد من حلمه ونطلب مغفرته سبحانه وتعالى بالأسباب التي شرعها، ومنها كثرة ذكره وشكره واغتنام الأوقات في قراءة كتابه وقيام ليله الذي تفضّل به علينا وتفضّل بساعاته، وصيام نهاره الذي امتنّ به علينا، أسأل الله عز وجل أن يرزقنا جميعا الحول والقوة لجعل عشرنا هذه مباركة نافعة ننتفع فيها من حلم الله علينا ونطلب مغفرته، فإنّ لكل عبد حاجة وأعظم الحاجات أن تُغفر الذنوب وتزال الزلات، فيصل العباد إلى ربهم سالمين يلقونه وهو راض عنهم فيكون مستقرهم جنات النعيم!

أسأل الله عز وجل لي ولكم ولوالدينا ووالديهم وجميع المسلمين المغفرة والرحمة وأن نكون من ساكني جنات النعيم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

انتهى اللقاء بفضل الله..

[١] البقرة:٢٩